ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ..وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ ﴾ [هود]

فإن أعرضوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر ، ويُوصف العذاب مرة بأنه كبير ، ويوصف مرة بأنه عظيم ، ويوصف مرة بأنه مهين ؛ لأنه عذاب لا ينتهى ويتنوع حسب ما يناسب المعذب ، فضلاً عن أن العذاب الذى يوجد فى دنيا الأغيار هو عذاب يجرى فى ظل المظنة بأنه سينقضى ، أما عذاب اليوم الآخر فهو لا ينقضى بالنسبة للمشركين بالله أبداً.

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ ﴾

أى : إلى الله مرجعكم [1] فى الإيجاد والإمداد ، والبداية والنهاية ، وبداية النهاية التى لا انتهاء معها وهى الآخرة ، فيثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسىء على إساءته ، فيؤتى سبحانه لكل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره ، وثوابه فى الآخرة.

ومن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار.

وفى الدنيا من زادت حسناته على سيئاته وعاش بين القبض والبسط.

والقبض والبسط هو إقبال على الله بتوبة وباعتراف بالذنب ، والإقرار بالذنب هو بداية التوبة.

(١) المرجع : الرجوع ، أو اسم زمان ، أو اسم مكان ، يقول الحق : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ .. ۝٥٥ ﴾ [آل عمران] أى : رجوعكم ، أو زمن رجوعكم ، أو مكان الرجوع ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ..۝٢٣ ﴾ [يونس] .

ومن كثرت سيئاته على حسناته كان في ضنك [1] العيش وقلق النفس.

ويؤتي الحق سبحانه كل ذي فضل فضله، فمن عمل لله عز وجل؛ وفقه الله فيما يستقبل على طاعته، والذين أعرضوا يُخاف عليهم من عذاب يوم كبير.

﴿.. وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [هود]

لأنه سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد، وعلى البداية والنهاية المحدودة، وبداية الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار، فهو القادر على كل شيء.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ [2] لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ [3] أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ [4] يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [5] ﴿٥﴾﴾

---

(١) الضنك: ضيق العيش. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ..﴿١٢٤﴾﴾ [طه] قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٦٨): «فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة».

(٢) يثنون صدورهم: يطوونها على عداوة المسلمين، ويُكِنُّون لهم البغض والكراهية.

(٣) الاستخفاء: طلب الخفاء والاختفاء. ومن جهلهم يريدون الاستخفاء من الله تعالى، وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب].

(٤) يستغشون ثيابهم: يتغطون بها مبالغة في الاستخفاء. [كلمات القرآن].

(٥) ذكر الواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٥٣) أن هذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق، وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، ويطوى بقلبه ما يكره.
وقال الكلبي: كان يجالس النبي ﷺ يظهر له أمراً يَسرُّه، ويضمر في قلبه خلاف ما يظهر.

وإذا وجدت «ألا» فى أول الكلام فأنت تعلم أنها للتنبيه ، ومعنى التنبيه أنه أمر يوقظ لك السامع إن كان غافلاً ؛ لأنك تحب ألا تفوته كلمة من الكلام الذى تقوله .

وحين تنبهه بغير أداء الأسلوب الذى تريده منه ، هنا يكون التنبيه قد أخذ حقه ، ومن بعد ذلك يجىء الكلام الذى تقوله ، وقد تهيَّأ ذهن السامع لاستقبال ما تقول .

فـ «ألا» - إذن - هى أداة تنبيه ؛ لأن الكلام ستار بين المتكلم والمخاطب ، والمخاطب لا يعرف الموضوع الذى ستكلمه فيه ، والمتكلم هو الذى يملك زمام الموقف ، وهو يهيئ ذهنه لترتيب ما يقول من كلمات ، أما المستمع فسوف يفاجأ بالموضوع ؛ وحتى لا يفاجأ ولا تضيع منه الفرصة ليلتقط كلمات المتكلم من أولها ، فهو ينبهه بأداة تنبيه ليستمع [(١)] .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .. (٥) ﴾ [هود]

ويقال : ثنيت الشىء أى : طويته ، وجعلته جزئين متصلين فوق بعضهما البعض .

وحين يثنى الإنسان صدره ، فهو يثنيه إلى الأمام ناحية بطنه ، ويدارى بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح ؛ لأن

---

(١) وردت ألا فى القرآن على أوجه :

الأول : التنبيه ، فتدل على تحقق ما بعدها ، وتدخل على الجملتين الاسمية والفعلية ، نحو ﴿ .. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [البقرة] ، ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ..(٨) ﴾ [هود] .

الثانى والثالث : التحضيض والعرض ، ومعناهما طلب الشىء ، لكن الأول طلب بحثٌ ، والثانى طلب بلين ، وتختص فيهما بالدخول على الجملة الفعلية نحو : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ .. (١٣) ﴾ [التوبة] ، ﴿ .. أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ (٢٢) ﴾ [النور] .

انفعال مواجيد [١] النفس البشرية ينضح على الوجوه .

وهم كارهون للرسول ﷺ ، وحاقدون عليه ؛ ولا يريدون أن يلحظ الرسول ﷺ ما على ملامحهم من انفعالات تفضح مواجيدهم الكارهة .

ومثل ذلك جاء من قوم نوح عليه السلام ، حين قال الحق سبحانه على لسان نوح :

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا [٢] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح]

ومن البداهة أن نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأنملة [٣] تسد فقط فتحة السمع ، وعدَّل القرآن الكريم ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح - عليه السلام - ، فكل منهم أراد أن يُدخل إصبعه في أذنه حتى لا يسمع أي دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذه شهادة ضدهم ؛ لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تميل قلوبهم لما يقال .

ولذلك نجد القرآن الكريم وهو ينقل لنا ما قاله مشركو مكة لبعضهم البعض :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا [٤] فِيهِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

فكأنهم تواصوا بالتشويش على القرآن ، ثقة منهم في أن القرآن

(١) مواجيد : مفرد موجدة . وقد وجد فلان وجداً : حزن أو غضب . والمراد : انفعالات النفس البشرية [المعجم الوسيط : مادة (و ج د)] بتصرف .

(٢) استغشوا ثيابهم : تغطوا بها كي لا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه . قاله ابن عباس . ذكره السيوطي في (الدر المنثور) (٨/ ٢٨٩) طبعة دار الفكر .

(٣) الأنملة : عقدة الإصبع أو سلاماها . وهي أيضاً : المفصل الأعلى من الإصبع الذي فيه الظفر . والجمع : أنامل . [المعجم الوسيط مادة (ن م ل)] .

(٤) اللغو : ما لا يعتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع . [المعجم الوسيط] . والغوا فيه : ائتوا باللغو والباطل عند قراءته [كلمات القرآن] . قال ابن عباس : بالتصفير والتخليط على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن . ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣٢١) وعزاه لابن أبي حاتم .

لو تناهى [1] إلى الأذن فقد يؤثر في نفسية السامع ؛ لأن النفس البشرية أغيار ، وقد تأتى للنفس ما يجعلها تميل دون أن يشعر صاحبها .

ولو كان هذا القرآن باطلاً ، فلماذا خافوا من سماعه ؟

ولكنه الغباء في العناد والكفر .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ..(٥) ﴾ [هود]

وهم قد استغشوا ثيابهم ليغطوا وجوههم ؛ مداراة للانفعالات التي تحملها هذه الوجوه [2] ، وهي انفعالات كراهية ، أو أنها قد تكون انفعالات أخرى ، فساعة يسمع واحد منهم القرآن قد ينفعل لما يسمع ، ولا يريد أن يُظهر الانفعال .

إذن : فالانفعال قد يكون قسرياً [3] ، وكان كفار قريش رغم كيدهم وحربهم لرسول الله ﷺ ، يتسللون ناحية بيت النبي ﷺ ليسمعوا القرآن ، وكانوا يضبطون بعضهم البعض هنالك ، ويدّعى كل منهم أنه إنما مرَّ على بيت النبي ﷺ مصادفة [4] .

وفي ذلك يقول الشاعر :

---

(١) تناهى : بلغ ووصل . الإنهاء : الإبلاغ . أنهيت إليه الخبر : أبلغته له . (لسان العرب - مادة : نهى) .

(٢) قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حنى ظهره ، واستغشى ثوبه ، وأضمر في نفسه همَّه . ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٢٤) .

(٣) قسرياً : أي خارجاً عن إرادة الإنسان .

(٤) وذلك أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق ، فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . . وهكذا إلى ليلة ثالثة حتى قال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا . (سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥) .

اذكُروهُمْ وقد تسلَّل كلٌّ بعدَ ما انفضَّ مجلسُ السُّمَّار [١]
اختلاساً يسْعَى لحجرة طَهَ لسَماعِ التنزيلِ فى الأسْحَار [٢]
عُذْرهم حُسْنُهُ فلمّا تَراءَوْا عَلَّلوها ببَارزِ الأعْذَار

وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا فى نفس الآية بـ «ألا» فى قوله:

﴿ ..أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾ [هود]

فهم إن داروا على محمد ﷺ، فهل هم قادرون على المداراة على رب محمد ؟ والذى لا يدركه بصر محمد فربُّ محمد سيُعلمه به.

وما دام الحق سبحانه يعلم ما يسرون ، فمن باب أولى أنه سبحانه وتعالى يعلم ما يعلنون.

والحق سبحانه وتعالى غيب ، وربما ظن ظان أنه قد يفلت منه شىء ، ولكن الحق سبحانه يُحصى ولا يُحصَى عليه ، فإن ظن ظان أن الحق سبحانه يعلم الغيب فقط ؛ لأنه غيب ، فهذا ظن خاطىء ؛ لأنه يعلم السر والعلن ، فهو عليم بذات الصدور ، وكلمة «عليم» صيغة مبالغة [٣] ، وهى ذات فى كنهها العلم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [٤] ﴿٥﴾ ﴾ [هود]

---

(١) السمار: هم الناس يسمرون بالليل، ويكون عادة فى ضوء القمر.

(٢) الأسحار: جمع سحر، وهو الثلث الأخير من الليل إلى مطلع الفجر. قال تعالى: ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات].

(٣) عليم: صيغة مبالغة من العلم، أى: بالغ العلم لا حدَّ لعلمه سبحانه.

(٤) الصدر: مقدم كل شىء وأوله، وصدر الإنسان معروف، وبداخله أضلاعه وقلبه ورئتاه. وفى الصدر تظهر آثار الانفعال انقباضاً فى الحزن وانشراحاً فى السرور، قال الحق سبحانه: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ [الشرح] وقال: ﴿ ..إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران] أى: بالأسرار المصاحبة للصدور [القاموس القويم باختصار].

نجد فيه كلمة ﴿ذَاتِ﴾ وهى تفيد الصحبة ، و(ذَاتِ الصُّدُورِ) أى : الأمور المصاحبة للصدور .

ونحن نعلم أن الصدر محل القلب ، ومحل الرئة ، والقلب محل المعتقدات التى انتُهى إليها ، وصارت حقائق ثابتة ، وعليها تدور حركة الحياة .

ويُقصد بـ ﴿ذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى : المعانى التى لا تفارق الصدور ، فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء أكانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية ، سواء أكانت نية حسنة أو نية سيئة .

وكل الأمور التى يسمونها ذات الصدور ، أى : صاحبات الصدور ، وهى القلوب ، وكأن الجِرْم [1] نفسه وهو القلب معلوم للحق سبحانه وتعالى ، فخواطره من بابَ أولى معلومة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ [2] فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا [3] كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾

---

(١) جرم كل شيء : جسمه . والمقصود القلب البشرى نفسه .

(٢) الدابة : اسم فاعل ، وغلب على غير العاقل ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث ، وقد يشمل العاقل وغيره ، كقوله تعالى : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ .. (١٦٤)﴾ [البقرة] تشمل الإنسان وغيره ، وكذلك قوله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ .. (٢٩)﴾ [الشورى] ، الدابة تشمل الكائنات الحية فى الأرض والسماء ، وفيها دليل على أن فى السماء كائنات حية وعاقلة .
أما قوله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠)﴾ [العنكبوت] ، الدابة هنا كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل (وإياكم) .

(٣) مستقرها : موضع استقرارها فى الأصلاب أو فى الأرحام ونحوها . ومستودعها : موضع استيداعها فى الأرحام ونحوها ، أو فى الأصلاب . [كلمات القرآن] للشيخ حسنين محمد مخلوف .

وحين يذكر القرآن الكريم لقطة توضح صفة ما ، فهو يأتي بما يتعلق بهذه الصفة ، وما دام الحق سبحانه عليماً بذات الصدور ، فهذا علم بالأمور السلبية غير الواضحة ، والحق سبحانه يعلم الإيجابيات أيضاً ، فهو يعلم النية الحسنة أيضاً ، ولكن الكلام هنا يخص جماعة يثنون صدورهم.

وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها، وبيَّن أنه عليم بكل شيء.

وقال سبحانه:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا .. ⟨٦⟩ ﴾ [هود]

والدابة: كل ما يدب على الأرض ، وتستخدم في العرف الخاص للدلالة على أي كائن يدب على الأرض غير الإنسان.

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ..⟨٣٨⟩ ﴾ [الأنعام]

وذكر الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام أنه شُغِل - حينما كُلِّف - بخواطر عن أهله ، وتساءل: كيف أذهب لأداء الرِّسالة وأترك أهلي؟

فأوحى له الله سبحانه أن يضرب حجراً فانفلق الحجر عن صخرة ، فأمره الحق سبحانه أن يضرب الصخرة ، فضربها فانفلقت ليخرج له حجر ، فضرب الحجر فانشق له عن دودة تلوك[1] شيئاً كأنما تتغذى به ، فقال: إن الذي رزق هذه في ظلمات تلك الأحجار كلها لن ينسى أهلي على ظهر

(١) لاك الشيء يلوكه لوكاً: مضغه. [اللسان: مادة (ل و ك)].

الأرض . ومضى موسى عليه السلام إلى رسالته .

وهذا أمر طبيعى ؛ لأن الحق سبحانه خالق كل الخلق ، ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة واستبقاء نوع ؛ فاستبقاء الحياة بالقوت [1] ، واستبقاء النوع بالزواج والمصاهرة .

إذن : فمن ضمن ترتيبات الخلق أن يوفر الحق سبحانه وتعالى استبقاء الحياة بالقوت ، واستبقاء النوع بالتزاوج .

ولذلك نقول دائماً : يجب أن نفرق بين عطاء الإله وعطاء الرب ، فالإله سبحانه هو رب الجميع ، لكنه إله من آمن به .

وما دام الحق سبحانه هو رب الجميع ، فالجميع مسئولون منه ؛ فالشمس تشرق على المؤمن وعلى الكافر ، وقد يستخرج الكافر من الشمس طاقة شمسية وينتفع بها ، فلماذا لا يأخذ المؤمن بالأسباب ؟

والهواء موجود للمؤمن وللكافر ؛ لأنه عطاء ربوبية ، فإن استفاد الكافر من الهواء ودرسه ، واستخدم خواصه أكثر من المؤمن ؛ فعلى المؤمن أن يجدَّ ويكدَّ فى الأخذ بالأسباب .

إذن : فهناك عطاء للربوبية يشترك فيه الجميع ، لكن عطاء الألوهية إنما يكون فى العبادة ، وهو يُخرجك عن مراداتك إلى مرادات ربك ، فحين تطلب منك شهواتك أن تفعل أمراً فيقول لك المنهج : لا . [2]

---

(١) القوت : ما يمسك الرمق من الرزق . وفى الصحاح : هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام . [لسان العرب : مادة (ق و ت)] .

(٢) وأصحاب المنهج الذين قاموا به وعليه ، يقول الله فى حقهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت]

وفى هذا تحكم منك فى الشهوات ، وارتقاء فى الاختيارات ، أما فى الأمور الحياتية الدنيا ، فعطاء الربوبية لكل كائن ليستبقى حياته.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا [1] .. ⑥ ﴾ [هود]

وكلمة «على» تفيد أن الرزق حق للدابة ، لكنها لم تفرضه هى على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه قد ألزم نفسه بهذا الحق.

ويقول سبحانه:

﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا .. ⑥ ﴾ [هود]

ولأنه سبحانه هو الذى يرزق الدابة فهو يعلم مستقرها وأين تعيش ؛ ليوصل إليها هذا الرزق.

والمستقر : هو مكان الاستقرار ، والمستودع : هو مكان الوديعة.

والحق سبحانه يُعْلمنا بذلك ليطمئن كل إنسان أن رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق.

فالرزق يأتى لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعى إلى الرزق شىء آخر ؛ فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزق لغيرك.

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٤): «الرزق حقيقته ما يتغذى به الحى ، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده ، ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ، لأن البهائم ترزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها ، وهكذا الأطفال ترزق اللبن ، ولا يقال : إن اللبن الذى فى الثدى ملك للطفل.
وقال تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ .. ㉒ ﴾ [الذاريات] وليس لنا فى السماء ملك ، ولأن الرزق لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ، لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه».

فمثلاً: أنت قد تزرع أرضك قمحاً فيأتى لك سفر للخارج ، وتترك قمحك ؛ ليأكله غيرك ، وتأكل أنت من قمح غيرك.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦ ﴾ [هود]

أى: أن كل أمر مكتوب ، وهناك فرق بين أن تفعل ما تريد ، ولكن لا يحكم إرادتك مكتوب ؛ فما يأتى على بالك تفعله،وبين أن تفعل أمراً قد وضعت خطواته فى خطة واضحة مكتوبة ، ثم تأتى أفعالك وفقاً لما كتبته.

ومن عظمة الخالق سبحانه أنه كتب كل شىء ، ثم يأتى كل ما فى الحياة وفق ما كتب.

والدليل على ذلك - على سبيل المثال - أن الله سبحانه كان يوحى إلى رسوله بالسورة من القرآن الكريم ، وبعد ذلك يُسرَّى [1] عن رسول الله ﷺ الوحى ، فيتلو السورة على أصحابه ، فمن يستطيع الكتابة فهو يكتب ، ومن يحفظ فهو يحفظ.

ثم يأتى الرسول ﷺ إلى الصلاة ، فيقرأ السورة كما كُتِبَتْ ، ويأتى كل نجم من القرآن فى مكانه الذى قاله النبى ﷺ لصحابته ، فكيفَ كان يحدث ذلك ؟

لقد حدث ذلك بما جاء به الحق سبحانه ، وأبلغه لرسوله ﷺ:

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ ﴾ [الأعلى]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) التسرية : انكشاف الوحى عنه ﷺ ، بما فيه من شدة تؤدى إلى أن يتصبب رسول الله ﷺ عرقاً.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ(١) عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا(٢) وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

وقد تعرض القرآن الكريم لمسألة خلق الأرض والسماء أكثر من مرة.

وقلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يخلق الأرض والسموات فى ستة أيام من أيام الدنيا، وكان من الممكن أن يخلقها فى أقل من طرفة عين بكلمة «كن» وعرفنا أن هناك فارقاً بين إيجاد الشىء، وطرح مكونات إيجاد الشىء.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يريد الإنسان صنع «الزبادى»، فهو يضع جزءاً من مادة الزبادى - وتسمى «خميرة» - فى كمية مناسبة من اللبن الدافىء، وهذه العملية لا تستغرق من الإنسان إلا دقائق، ثم يترك اللبن المخلوط بخميرة الزبادى، وبعد مضى أربع وعشرين ساعة يتحول اللبن المخلوط بالخميرة إلى زبادى بالفعل.

وهذا يحدث بالنسبة لأفعال البشر، فهى أفعال تحتاج إلى علاج، ولكن أفعال الخالق سبحانه وتعالى لا علاج فيها؛ لأنها كلها تأتى بكلمة «كن».

أو كما قال بعض العلماء: إن الله شاء أن يجعل خلق الأرض والسموات فى ستة أيام، وقد أخذ بعض المستشرقين من هذه الآية، ومن

(١) العرش في اللغة: سرير الملك. وقد سمى سبحانه سرير ملكة سبأ بالعرش، فقال سبحانه: ﴿ .. ولها عرش عظيم ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل]. وعرش البارى سبحانه لا يُحَدُّ، ذكره رب العزة فى كتابه (٢١ مرة) مضافاً إليه سبحانه.

(٢) ليبلوكم: ليختبركم، وهو أعلم بأمركم.
أحسن عملاً: أطوع لله وأروع عن محارمه. [كلمات القرآن].

آيات أخرى مجالاً لمحاولة النيل من القرآن الكريم ، وأن يدَّعوا أن فيه تعارضاً ، فالحق سبحانه وتعالى هنا يقول:

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٧﴾ ﴾ [هود]

وجاءوا إلى آية التفصيل وجمعوا ما فيها من أيام ، وقالوا: إنها ثمانية أيام ، وهي قول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا [١] ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ [٢] مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا [٣] فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ [٤] فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ [٥] سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت]

---

(١) الند : المثل والنظير . وجمعه : أنداد . وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة] أي : أمثالاً شركاء . تعالى الله عما يقولون [القاموس القويم] بتصرف.

(٢) رسا الشيء يرسو رسواً: ثبت ورسخ ، وأرساه: جعله ثابتاً راسخاً ، وأرسى السفينة: ثبتها على الشاطىء فلا تسير . والمراد بالرواسي : الجبال لأنها تثبت الأرض حتى تستقر ولا تميل . قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل] وقال تعالى: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ [النازعات] . [القاموس القويم - بتصرف].

(٣) الأقوات: جمع قوت . وهو ما يمسك الرمق من الرزق . وفي الصحاح للجوهري : هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام . [اللسان - مادة : قوت].

(٤) ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت] . الدخان : بخار الماء المتصاعد منها حين خلقت الأرض . ذكره ابن كثير في تفسيره [٤/ ٩٣].

(٥) فقضاهن : خلقهن . فالقضاء هنا بمعنى الخلق . وهي من الكلمات التي تأتي على وجوه كثيرة من المعاني ، ومن معانيها:

الفراغ: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ .. ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [البقرة].

الأمر: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا .. ﴿١١٧﴾ ﴾ [البقرة].

العهد: ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص].

الوصية: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء].

وهنا قال بعض المستشرقين: لو كانت هذه هى قصة الخلق للأرض والسموات لطابقت آية الإجمال آية التفصيل.

وقال أحدهم: لنفرض أن عندى عشرة أرادب من القمح، وأعطيت فلاناً خمسة أرادب وفلاناً ثلاثة أرادب، وفلاناً أعطيته إردبين، وبذلك ينفد [1] ما عندى؛ لأن التفصيل مطابق للإجمال.

وادَّعى هذا البعض من المستشرقين أن التفصيل لا يتساوى مع الإجمال. ولم يفطنوا إلى أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى، وهو يكلم أناساً لهم ملكة أداء وبيان وبلاغة وفصاحة؛ وقد فهم هؤلاء ما لم يفهمه المستشرقون.

هم فهموا، كأهل فصاحة، أن الحق - سبحانه وتعالى - قد خلق الأرض في يومين، ثم جعل فيها رواسي وبارك فيها، إما فى الأرض أو فى الجبال، وقدَّر فيها أقواتها، وكل ذلك تتمة للحديث عن الأرض.

ومثال ذلك: حين أسافر إلى الإسكندرية فأنا أصل إلى مدينة طنطا فى ساعة - مثلاً - وإلى الإسكندرية فى ساعتين، أى: أن ساعة السفر التى وصلت فيها إلى طنطا هى من ضمن ساعتى السفر إلى الإسكندرية.

وكذلك خلق الأرض والرواسي وتقدير القوت، كل ذلك فى أربعة أيام [2]

---

(١) نفد - ينفد نفداً ونفاداً: فنى وذهب وانقطع ولم يبق، من النفاد، وهو الانتهاء. وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل].

(٢) اليوم: فى علم الفلك الحديث مقدار دوران الأرض حول محورها مرة، ومدته أربع وعشرون ساعة تقريباً، وجمعه أيام. وأيام العرب: وقائعهم الحربية. وأيام الله أيام حلَّتْ فيها نِقَم الله وعذابه على الأمم الماضية العاصية، وأيامه التى أنعم فيها على أمم مطيعة صالحة.

ويوم الدين: يوم القيامة. ويوم حنين: حدثت فيه موقعة حنين. واليوم عند الله مقداره يختلف عن اليوم عندنا فأحياناً يكون ألف سنة، ولكل نجم يومه، ولكل كوكب يومه. قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج]. وقد يكون المقدار خمسين ألف سنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿.. فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج]، وبهذا التقدير نفهم معنى قوله تعالى فى خلق السموات والأرض: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. (١٢)﴾ [فصلت] فالله أعلم بمقدار هذين اليومين. [القاموس القويم - بتصرف]

متضمنة يَوْمَىْ خَلْق الأرض [1] ، ثم جاء خلق السماء فى يومين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧) ﴾ [هود]

كل هذه المسائل الغيبية لها حجة أساسية ، وهى أن الذى أخبر بها هو الصادق ، فلا أحد يشك أن الأرض والسموات مخلوقة ، ولا أحد يشك فى أن السموات والأرض أكبر خلقاً من خلق الناس ، وليس هناك أحد من البشر ادَّعى أنه خلق الأرض أو خلق السموات .

وكل المخترعات البشرية نعرف أصحابها ، مثل : المصباح الكهربى ، والهاتف ، والميكروفون ، والتليفزيون ، والسيارة ، وغيرها .

ولكن حين نجىء إلى السموات والأرض لا نجد أحداً قد ادعى أنه قد خلقها .

وقد أبلغنا الحق سبحانه أنه هو الذى خلقها ، وهى لمن ادَّعاها إلى أن يظهر مُعارِض ، ولن يظهر هذا المعارض أبداً .

وكل هذا الخلق من أجل البلاء :

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ [2] أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .. (٧) ﴾ [هود]

---

(١) ولذلك قال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» ص ٣٧٣ : «يوما خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما ، والمعنى فى تتمة أربعة أيام، وهى مع يومى خلق السموات ستة أيام . يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجعل المذكور فى الآية وما بعده، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات» .

(٢) بلوت الشىء - أبلوه بلواً وبلاء : امتحنته واختبرته، قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. (٣٥) ﴾ [الأنبياء] أى : نختبركم بالشر والنعم، أو بالخير والنعم ؛ لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم . وقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٣٠) ﴾ [يونس] أى : تعرف حقيقة عملها الذى قدمته كما يعرف المختبر الشىء الذى يختبره . وقوله تعالى : ﴿ .. وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد] . أى : نعرف صدقها من كذبها . ومن أغراض البلاء والابتلاء إظهار حقيقة العمل والتمييز بين العمل الحسن وغيره ؛ تمهيداً للثواب أو العقاب . [القاموس القويم] بتصرف .

أى: ليختبركم أيكم أحسن عملاً[1] ، ولكن من الذى يحدد العمل ؟

إنه الله سبحانه وتعالى.

وهل الحق سبحانه فى حاجة إلى أن يختبر مخلوقاته ؟

لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كل ما يأتى من الخلق ، ولكنه سبحانه أراد بالاختبار أن يطابق ما يأتى منهم على ما علمه أزلاً ؛ حجة عليهم.

وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبار الحجة علينا.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ..وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾ [هود]

وهنا يصور الحق - سبحانه وتعالى - تكذيب المعاندين لرسول الله ﷺ ، فهم يلقون بالألفاظ على عواهنها[2] من قبل أن تمر على تفكيرهم.

فلو أنهم قد مروا بهذه الكلمات على تفكيرهم ؛ لاستحال منطقياً أن يقولوها.

والرسول ﷺ يخبرهم ببلاغ الحق سبحانه وتعالى لهم بأنهم مبعوثون من بعد الموت.

---

(١) عن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ تلا: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .. ۝٧﴾ [هود]. قال : «أيكم أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعة الله» أورده القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٧) والسيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٠٤) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والحاكم فى التاريخ وابن مردويه بنحوه.

(٢) ألقى الكلام على عواهنه : لم يتدبره ، وقيل : هو إذا لم يهتم أصاب أم أخطأ ، وقيل : إذا تهاون به. وقال ابن الأثير : العواهن أن تأخذ غير الطريق فى السير أو الكلام ، جمع عاهنة. وعهن الشىء : أى : أرسل الكلام على ما حضر منه وعجل ، من خطأ وصواب. أى : عدم التفكير فى الكلام قبل التلفظ به والقاؤه على علاته. [اللسان : مادة (ع هـ ن)] بتصرف.

وهذا كلام إخبارى بأنهم إن ماتوا - وهم سيموتون لا محالة - سيبعثهم الله سبحانه ، فما كان منهم إلا أن قالوا:

﴿ .. إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾ [هود]

والخبر الذى يقوله لهم هو خبر ، فما موقع السحر منه ؟ إنهم يعلمون أنه ﷺ لم يقل ذلك إلا من نص القرآن الكريم ، وهم يقولون عن القرآن الكريم إنه سحر ، فكأن النص نفسه من السحر الذى حكموا به على القرآن.

وأوضحنا من قبل أن إبطال قضية السحر فى القرآن الكريم دليله منطقى مع القول ؛ لأنهم إن كانوا قد ادعوا أن رسول الله ﷺ أو أن محمداً - فى عرفهم - قد سحر القوم الذين اتبعوه.

فالساحر له تأثير على المسحور ، والمسحور لا دخل له فى عملية السحر ، فإذا كان محمد قد سحر القوم الذين اتبعوه ، فلماذا لم يسحر هؤلاء المنكرين لرسالته ؛ بنفس الطريقة التى سحر بها غيرهم ؟

وحيث إنهم قد بقوا على ما هم عليه من عناد لرسول الله ﷺ ، فهذا دليل على أن المسألة ليست سحراً ، ولو كان الأمر كذلك لسحرهم جميعاً.

وقولهم: ﴿ .. إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾ [هود]

يدل على أنه سحر محيط ، لا سحر لأناس خاصين ، فكلمة ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ تعنى: سحراً محيطاً بكل من يريد سحره.

وبقاء واحد على الكفر دون إيمان برسول الله يدل على أن المسألة ليست سحراً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: